لسانيات الخطاب السّردي في البخلاء
دراسة الاتّساق والانسجام في "قصص يرويها المسجديّون"

نجاة عرب الشعبة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار –عنابة–

ملخص:

تتألف هذه الدراسة من قسمين رئيسين، حيث خصصنا القسم الأول منها للجانب النظري الذي كان الدافع إليه رفع اللبس عن جملة من الاصطلاحات اللسانية والنقدية التي تتعلق بعلم شامل يدعى علم النص، وهو العلم الذي اشتدت حوله اختلافات المنظرين في تحديد تسميته أولا ، وتحديد مفاهيم مفرداته ثانيا؛ من مثل النص والخطاب ..: هذا من جانب ، ومن آخر حاولنا عرض صورة عن أهم مجالات البحث التي تتأسس عليها لسانيات النص/الخطاب، وتتحدد في الترابطات النصية التي تحكم بنية النص .

أما القسم الثاني، وهو تطبيقي بحث، وجاء محاولة لاستقراء إحدى النصوص السردية في كتاب البخلاء وذلك بمباحثة مبدأين من مبادئ الترابط النصي في اللسانيات النصية وهما الاتساق والانسجام، وتبيين فعاليتهما في تحديد البعد الدلالي للنص.

Résumé

Cette étude se compose de deux parties : la première, est penchée à la théorie, qui se résume par la levée de la confusion d'un ensemble des terminologies linguistiques et critiques, qui est consacré à une science globale qu'on nomme textologie. Celle-ci est s'accentue sur les différences des théoriciens dans l'identification et dans les définitions des vocabulaires, citons en exemple : le texte, et le discours. Ceci d'un cote et d'un autre coté, on a essayé d'exposer une image sur les importants domaines de recherche de linguistique de texte/discours qui définit, les enchaînements textuels qui gouvernent ainsi la structure du texte.

La deuxième partie c'est la pratique proprement dite, qui vient d'une tentation d'induction un des textes narratifs du livre d'**El-Boukhala** basé sur deux principes de recherche essentiels de l'enchaînement textuel dans la linguistique du texte qui sont : la cohésion, la cohérence, et d'éclaircir ensuite leur efficacité dans la dimension sémantique du texte

أولا:القسم النّظري:

منذ بداية القرن العشرين، والعالم يعيش حركة نقدية واسعة النطاق نتيجة ظهور المدارس اللسانية والأدبية التي كان لها الدور الفعال في بروز مفاهيم وأطروحات واصطلاحات جديدة، خضع لها الخطاب الأدبي بشتى ألوانه .ولعل ظهور علم جديد عرف بـ"علم النص"في منتصف القرن الفارط يعنى بالنص وتحليل الخطاب، إلا دليلا على حدة ونشاط تلك الحركة النقدية، حيث أحدث ظهور هذا العلم ثورة في مقاربة وتحليل الخطاب الأدبي.

ويجدر الذكر –هنا– أن اتجاهات البحث في هذا العلم، أخذت أشكالا عدة، وذلك تبعا للأسس التي يستند إليها علماء النص. وكان من نتائج ذلك، أن عرف هذا العلم كغيره من العلوم اللسانية النقدية الحديثة العديد من المشكلات، ولعل أكثرها وضوحا مشكلة المصطلح، والمفهوم الذي تقوم عليه، والذي بدوره انجر عنه اختلاف المنظرين والنقاد في تسمية هذا العلم؛ فلقد نعتوه بتسميات عدة، قد تتفق في الاتجاه حينا وقد تختلف أحيانا، نذكر اشهرها، لسانيات النص، لسانيات الخطاب، نحو النص، علم لغة النص، نظرية النص، نظرية تحليل الخطاب وغيرها.

لعل أهم ما يفرق بين هذه التسميات، كما –هو واضح – المفهوم الذي تتأسس عليه بؤرة البحث لدى المنظرين، هل هو الخطاب أم النص؟.والمقام هنا لا يسمح بوصف حدة جدل الدارسين واختلافهم حول هذه المسألة.ولقد برّر الباحث سعيد يقطين هذا الاختلاف والتضارب، تبريرا موضوعيا جاء في قوله:" الخطاب– النص– الملفوظ. إنها جميعا مفاهيم يتعدد استخدامها بحسب الإطارات والخلفيات والمقاصد، ولا يمكن التعامل معها خارج الحياة العلمية والعملية التي يتحدد في إطارها"[1]. فعلى الباحث إذا أن يجهز نفسه لمثل تلك العوائق ويتعامل معها بحسب الإطار الذي يشتغل فيه .

إن العلاقة بين النص والخطاب من منظور الدارسين متعددة، ففي مجال تحليل السرد لا يفرق كل من تودوروف، وجنيت وغيرهما بين المفهومين ويرون أنهما شيء واحد، والسبب في ذلك يرجع إلى أنهم "يركزون على ما يحدد سردية العمل السردي ولم يكونوا يهتمون بالبعد الدلالي"[2]. أما اللسانيون ونخص بالذكر (هالداي ورقية حسن)، فإن كلمة نص (texte) تستخدم لديهم لتشير إلى أن أي مقطع منطوق أو مكتوب وأيا كان طوله، يشكل كلا متحدا، فالترابط قوام النص أو هو على الأقل شرط أول لكي يكون الكلام نصا[3].

ويفرق ج.م.أدام J.M.Adam بين المفهومين، من حيث نظرته للخطاب على أنه"كلام ينجز في ظرفية ما من ظروف التواصل، وهي ظرفية تعامل اجتماعية خطابية بينما النص هو كلام من غير ما تركيز على هذه الوضعية التواصلية"[4]

وليس ببعيد عن هذا التصور، فإن الباحث الفرنسي بول ريكور P.Ricoeur يفرق بين الخطاب والنص على أساس فعل الكتابة (التدوين) ويظهر ذلك في قوله:" لنسم نصا كل خطاب تبّثته الكتابة. تبعا لهذا التعريف يكون التثبيت بالكتابة مؤسسا للنص نفسه"[5]. وإذا كان الحال بالنسبة لهذين المفهومين عند الغرب على هذا النحو من الاختلاف الذي كما رأينا وصل إلى حد التناقض، فكيف هو الحال عند النقاد العرب المحدثين؟

لقد اختلف الدارسون العرب حول هذه المسألة وذهبوا فيها كل مذهب، نذكر منهم، سعيد يقطين ومحمد مفتاح، وتوفيق قريرة .

أما سعيد يقطين، فإنه يرى بأن النص أعم من الخطاب، ذلك من حيث إن الخطاب يرتبط بالمظهر النحوي؛ بينما النص يرتبط بالمظهر الدلالي، وكان منطلق يقطين في هذا الطرح يرتهن بإيمانه "بأن التحليل لا يمكنه أن يتوقف عند حدود الوصف (الخطاب) وأن عليه أن يتعداه إلى التفسير (النص)"[6].

أما محمد مفتاح وتوفيق قريرة فإنهما على عكس يقطين، إذ يتفقان على أن الخطاب أعم وأشمل من النص من منطلق أن الخطاب يصهر في بنيته أجناسا من علوم إنسانية مختلفة، وتتشكل هذه الأجناس بدورها في صورة نصوص أدبية، تاريخية ،إعلامية ...إلخ.

لنعود الآن إلى موضوعنا الأساس، الذي يتعلق بماهية علم النص أو لسانيات النص/الخطاب، متى وكيف ظهر ؟ ما هي مجالاته؟إلى غيرها من الأسئلة التي نزمع الإجابة عنها في ما يأتي .

إن ظهور لسانيات النص/الخطاب، كان نتيجة النجاح الباهر الذي حققته اللسانيات في تناولها للغة، فإن ذلك ـ دون شك ـ كان له أثر كبير في حقل الدراسات الأدبية والاجتماعية والإنسانية بصفة عامة، من ذلك استفادة البحوث الأدبية من العديد من الإنجازات التي حصلت عليها اللسانيات، ويظهر ذلك واضحا في هيمنة المصطلحات اللسانية على الدراسة الأدبية نتيجة التلازم الذي كان وثيقا بين الأدب واللسانيات منذ الشكلانيين الروس [7].

ويجمع الدارسون على أن إرهاصات علم النص، أو لسانيات النص بدأت على يد العالم اللساني الأمريكي ز. هاريس Zellig Harris الذي احتل الريادة في هذا المجال مع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، حيث نشر دراستين اكتسبتا أهمية منهجية في تاريخ اللسانيات الحديثة تحت عنوان: " تحليل الخطاب" الذي قدم فيه أول/ تحليل منهجي لنصوص بعينها [8]، وهو بتلك الدراسة عد " أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتحدى الجملة إلى الخطاب"[9].

أما تطور علم النص –كما تشير الدراسات– فإنما كان على يد "فان دايك" Van Dijk، بل إنّه في نظر بعض الدارسين يعد مؤسس علم النص في بداية السبعينيات لما ألف كتابه المشهور " بعض مظاهر نحو النص" حيث يقارن فيه بين النص والخطاب في معنى واحد، إلا أنه أقلع عن نظرته تلك بأن فرق بين المفهومين (النص والخطاب) في كتابة Text and Context(النص وسياق النص) سنة 1977.

من الواضح أن ظهور نظرية اللسانيات النصية قد ارتبط ارتباطا وثيقا بتحليل الخطاب، متجاوزا بذلك مفهوم الجملة التي كانت اللسانيات تقف في التحليل عندها. فهي تمثل بالنسبة لها كما يقول بارت" آخر وحدة تعتقد أن من حقها الاهتمام بها"[10]. بينما يشكل النص وحدة الدراسة بالنسبة للسانيات النص ويتمثل هدف البحث لديها في "استخراج المبادئ المتحكمة فيما يحدث من تفرعات للجمل داخل هذه الوحدة النصية"[11].

ولعل أهم مسألة شكلت نقطة التقاء بين الدارسين المهتمين بعلم النص على اختلاف منطلقاتهم واتجاهاتهم ، هي مسالة ترابط النص التي عرفت لديهم بمقولتي، الاتساق والانسجام(la cohésion et la cohérence) .ولقد عبر الباحث محمد خطابي عن هذا التوافق النظري في كتابه لسانيات النص بقوله"حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفا، ينتمي إلى هذه المجالات (وقد حددها في تحليل الخطاب ،ولسانيات الخطاب/النص، ونحو النص وعلم النص)، خاليا من هذين المفهومين(أو من أحدهما) أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعالق وما شاكلهما"[12]

ومن المنطق أن نجد مسألة الترابط النصي قد احتلت المقام الأول لدى علماء النص وتحليل الخطاب في دراساتهم النقدية، ذلك لأن أساس تلك الدراسات والنظريات قام على ما وراء الجملة ، وفيما وراء الجملة كما يقول بارت[13] هناك سوى جمل أخرى متتالية تشكل في مجملها خطابا(نصا). وتعد دراسة هاليداي، ورقية حسن التي بعنوان "الاتساق في

اللغة الإنجليزية"من أشهر الدراسات التي أولت مسألتي الاتساق والانسجام عناية خاصة بالبحث والتنظير حيث عنيا صاحبا الكتاب "بمبادئ الترابط (الوصل والفصل) التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض وتفرض اعتمادنا في فهم جزء على معاني الأجزاء الأخرى"[14] .

وتتحدد مظاهر الاتساق أو الترابط النصي حسب هذا الثنائي (هليداي، وحسن)، في خمسة أشكال علاقية كبرى هي: الإحالة، والاستبدال ، والحذف، والوصل،والاتساق المعجمي[15] .من ذلك حدد مفهوم الاتساق بأنه "ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص /خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته"[16]

وقد عمق فان ديك van dijk البحث في مسألة الترابط النصي أو ما يعرف بالاتساق بطرح سؤال حول ماهية الشروط التي تحكم الترابط ؟ وكان أساس هذا الطرح بالنسبة لفان ديك، هو الفرضية التي تتأسس عليها نظريته حول مسألة الاتساق، وهي أن الترابط لا يتوقف على وجود الروابط، كما أن وجود الروابط لا يعني عدم الترابط [17]. أما فيما يخص مفهوم الانسجام، فإن "فان ديك" يرى أن مسألة تحليله تحتاج إلى تحديد نوع الدلالة التي ستمكننا من ذلك. وهو ما اتفق المنظرون بشأنه فقد عدوا مفهوم الانسجام أعمق من مفهوم الاتساق من منطلق أنه"يتجاوز مستوى الترابطات الشكلية ليبحث عن التعالقات الدلالية العميقة بين عناصر النص التي تبدو في عديد الأحيان متنافرة على مستوى بنيتها الظاهرة"[18].

وبهذا يكون مفهوما الاتساق والانسجام متكاملين من حيث الوظيفة البنائية والدلالية.

<u>– الخطاب السّردي</u>

وإذا كنا إلى هنا نتحدث عن الخطاب بشكل عام، فإننا سنخصص الحديث في ما يأتي عن الخطاب السردي، كنوع من أنواع الخطابات الأدبية. فمما لا شك فيه أن الخطاب

السردي لا يختلف عن باقي الخطابات، فهو فعالية خطابية تمتلك من الآليات والشروط التي توفر له النصية، ما يجعله يكتسب الأبعاد الدلالية المختلفة التي تضمن له الانسجام.

يقول جورج مولينيه: " إذا اعتبرنا مجموع الأدب خطابا، بالمعنى اللساني للكلمة، لسلمنا بأن قسما كبيرا من هذا الخطاب، إذا أدرك في كليته، ينقسم إلى خطاب سردي وخطاب وصفي ... لقد درس الخطاب السردي، بسبب الدور المثالي والمؤسس الذي قام علم السرد البنيوي عند "بروب" وعند أحدث تابعيه"[19]. وعلم السرد أو السّرديات يقوم على دراسة وتحليل مكونات الحكي الذي يقوم على دعامتين أساسيتين :الأولى أن يحتوي على محكي أو قصة ما، تظم أحداثا معينة ، والثانية أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة وتسمى هذه الطريقة سردا. ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساس.

إن هذه العناية الخاصة بأوجه الخطاب السردي – كما يؤكد بعض الدارسين– هي التي " أفضت إلى بروز تيارين رئيسين في السردية، أولهما السردية الدلالية التي تعنى بمضمون الأفعال السردية دونما اهتمام بالسرد الذي يكونها... ،وثانيهما السردية اللسانية التي تعنى بالمظاهر اللغوية للخطاب، وما ينطوي عليه من رواة وأساليب سرد ورؤى وعلاقات تربط الراوي بالمروي"[20].

والحديث عن الخطاب السردي يعني أيضا الحديث عن الوعاء اللغوي الذي يحتوي كل عناصر النص السردي .وهو ما يشكل موضوع اختبار بالنسبة للسانيات النص، حيث تتقصى الوسائل والتقنيات اللسانية التي اصطنعها السارد في تشكيل نسيج النص السردي. من مفردات وتراكيب وروابط تصل بين كل وحدات النص الصغرى والكبرى فيتحقق ما يسمى باتساق النص وانسجامه.

تلك هي إذا أهم مجالات البحث التي تتأسس عليها لسانيات النص .وسنحاول في هذا القسم التطبيقي من هذه الدراسة استثمار بعض معايير مقولتي الاتساق والانسجام لتطبيقها على إحدى النصوص السردية المنتقاة من كتاب البخلاء للجاحظ.ورأينا أن نقسم هذه الدراسة إلى مبحثين رئيسين هما: أولا، خاصية الاتساق وفعاليتها في انسجام النص السردي. ثانيا، أسس العلاقة التخاطبية بين السارد والمخاطب.

ثانيا: القسم التطبيقي:

يقع نص الدراسة "قصص يرويها المسجديّون" في كتاب البخلاء محتلا الترتيب الثالث بعد "رسالة سهل بن هارون" ، و"نوادر أهل خراسان." وكتاب البخلاء كما نعلم وضعه الجاحظ ليعرض فيه نوادر البخلاء، وهم شخصيات عاشت في العصر العباسي، وما قبل العصر العباسي اتخذت من البخل مسلكا اقتصاديا تعيش على مبادئه ، وتنتصر للزوميته في الحياة . والنص من حيث الشكل يتألف من مجموعة من الوحدات السردية الكبرى والصغرى تربط بينها روابط لسانية متنوعة بحسب تنوع السياق السردي الذي ورد فيه خطاب السارد والشخصيات السردية ،وهو ما سنهتم بمدارسته في العنصر الأول من الدراسة التطبيقية .

I: خاصية الاتساق وفعاليتها في انسجام النص السردي:

يقول جون لوينز: " إن النص بكليته لابد أن ينطوي على مجموعة مميزة من الخصائص التي تؤدي التماسك والانسجام من خلال تأملات المتلقي في النص المنجز أمامه"[21]

نفهم من هذا القول، أن التماسك النصي أو الاتساق النصي يعني وجود علاقة بين أجزاء النص ، كأن تكون جملا أو فقرات أو مقاطع أو وحدات لسانية أو دلالية وكلاهما يؤدي دورا تفسيريا. وإذا نحن نظرنا . بداية . إلى النص موضوع الدراسة من حيث تشكله الهيكلي لمعاينة وجوه الاتساق فيه، ونعني بتشكله الهيكلي، الجوانب الفيزيقية التي يحددها روجر فاولر R. Fowler في "الخط وتقسيم الفقرات والفصول والصفحات"[22]. فإن ذلك يقودنا إلى القول، إن هذا النص يتشكل من كتلتين نصيتين واحدة خارجية شاملة إطارية تمثل البنية الكبرى، وأخرى داخلية تمثل البنى الصغرى.

تتمثل بنية النص الكبرى في النص الكلي الذي جاء في ثنايا كتاب البخلاء، الذي قام الجاحظ فيه على تحويل أخبار ونوادر البخلاء من واقع تناقلته العامة عبر المشافهة إلى نص مثبت عن طريق الكتابة. ويحتل نص الدراسة "قصص يرويها المسجديون" فيه المرتبة الثالثة بعد نصي، "رسالة سهل بن هارون" و " نوادر أهل خراسان" .

يفتتح الجاحظ نص "المسجديون" بجملة فعلية يتصدرها الفعل "قال" الذي يفسح من خلاله مجال الحكي إلى أصحاب القول، وهم جماعة من المسجديين يروون قصصا نقلوها عن جماعة تنتمي إلى مذهبهم. جاء في مقدمة سردهم عرضا استهلاليا يعرفون من خلاله المتلقي بهذه الفئة فجاء قولهم على النحو التالي:"**اجتمع ناس في المسجد، ممن**

ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التّحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، التماسا للفائدة، واستمتاعا بذكره.[23]

بهذه الفقرة الاستهلالية يتحدد الشكل الإطار للنص الكلي، حيث تتتالى بعدها مجموعة من النصوص السردية الداخلية، التي تشكل بدورها وحدات سردية مستقلة بذاتها لها من المكونات السردية ما يجعلنا نطلق عليها قصة تامة الحبك. وهي خمس قصص كل واحدة منها تضم أحداثا معينة منفصلة تماما عن أحداث القصة التي تليها.وهذا النوع من السرد ينتمي إلى ما يسمى بالسرد العنقودي ، وهو يختلف عن السرد المؤطر على نحو ما نجده في ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. ومادمنا نتحدث عن الاتساق أو التماسك باعتباره هنا أثر تنضيد بنية خطابية في بنية نصية، فإننا نرى أن هذا التماسك الموجود في نص الدراسة إنما يستمد ترابطه من منطق البنية السردية في المحكي ككل. أي أن تلك النصوص السردية الداخلية إنما هي منفصلة من حيث أنها مكتفية بذاتها دلاليا، لكن ذلك لم يمنع ترابطها بعضها ببعض على نحو آخر . يبرز في مظهرين، أحدهما لساني والآخر دلالي.

فأما اللساني، فيتحدد في حروف الربط التي تتصدر بداية كل تركيب نحوي في كل قصة من ذلك مثلا :" فقال شيخ منهم..."،"فأقبل عليهم شيخ فقال"،"ثم اندفع شيخ منهم فقال"...إلخ

نلاحظ أنه إلى جانب حروف الربط ، هناك الربط عن طريق الإحالة الذي يتحدد في ضمائر الغائب "منهم، عليهم، منهم" إن هذه الضمائر إنما تعود على تلك الجماعة المجتمعة في المسجد تتطارح بينها موضوع الاقتصاد في النفقة. وهذا النوع من الربط حقق ما نطلق عليه بالعلاقة العضوية غير المنطقية أو السببية ، فلو يطرأ أيّ تغيير على ترتيب تلك الوحدات السردية الكبرى، فإنه لن يحدث أي خلل أو تشويش على نظام النص الخارجي .

هذا عن الترابط اللساني، أما الترابط الدلالي الذي يحقق انسجام النص ككل فإنه يظهر على مستوى السياق الدلالي العام الذي تسري في نطاقه مضامين تلك القصص والتي تتمحور جميعها حول فكرة واحدة، وهي الاعتقاد بفائدة البخل، وتحويله من صفة الرذائل إلى صفة الفضائل.

بعد أن قمنا بوصف وتحليل خاصية الاتساق على مستوى ترابط النص الكلي بأجزائه الكبرى . فإننا سنتناول . فيما يلي . الخاصية ذاتها ولكن على مستوى بنية الوحدات الصغرى التي تتكون منها تلك النصوص الداخلية، التي تشكل نظاما مغلقا وبنية مكتفية بذاتها وهو ما يحقق لها صفة النصّية.

إن موضوع الترابط بين وحدات النص الصغرى إنما يعد من بين أهم المباحث الأساسة التي شغلت علماء نظرية النص وتحليل الخطاب؛ فهؤلاء يعنون بهذا المبحث من مبدأ فحص ووصف أنواع الربط على مستوى بنية الخطاب اللغوية، أي العلاقات النحوية التركيبية، وغير النحوية كأن تظهر في عدة مظاهر مختلفة كالتكرار بأنواعه المختلفة(التكرار الجزئي، والتكرار بالمرادف،...). إلى غير ذلك من وسائل الاتساق النصي.

لننظر إذا في أدوات الربط التي كونت لحمة تلك النصوص السردية، وحققت انسجامها الدلالي. ولعل طرح جملة من الأسئلة المنهجية يقودنا إلى تحقيق غايتنا من البحث والتي تتحدد على النحو الآتي:

كيف وبحسب أي نحو تترابط الوحدات الصغرى على امتداد المركّب السّردي في تلك النصوص؟ ما هي قواعد الاتساق التي اعتمدها الناص في إنشاء نسيج خطابه السّردي ؟

- مظاهر الاتّساق:

يعتبر مفهوم الاتساق من منظور (هاليداي،وحسن) شرطا ضروريا وكافيا للتعرف على ما هو نص وعلى ما ليس نصا [24] وهو يتحقق من تعالق الوحدات الصغرى فيما بينها لتشكل نظام الخطاب السردي من حيث هو وحدة دلالية. ويتحدد شكل الاتساق في جملة من الأدوات حددها هاليداي وحسن في خمس أدوات سبق ذكرها، سنعمل من جانبنا في هذا الجزء من الدراسة التطبيقية على اختبار اثنين منها هما (الإحالة والحذف) في إحدى النصوص الداخلية وهو "الحمار والماء العذب".

يحتل هذا النص المقام الأول من حيث الترتيب في فضاء النص الكلي بالنسبة لباقي النصوص السردية. وهو نص قصير من حيث الحجم يتألف من مقطعين متوازيين في الطول، استهله السارد بجملة استهلال ترك السرد فيها يأتي على لسان البطل جاء فيها : "**فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم مالح أجاج، لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل، وتموت عليه النخل....**"[25]

جاء أسلوب هذا المقطع السردي في صيغة إخبارية تقريرية يعرض السارد من خلالها على المتلقي الماثل أمامه، الموقف السردي الخاص الذي يقوم على أساسه المحكي ككل، والذي يتمثل في معضلة الحصول على الماء العذب . فاستهل، سرده بتركيب إسنادي اسمي يتوسطه تركيب شبه نحوي جاء في شكل اعتراضي يتمثل في عبارة (كما قد علمتم). استخدمها السارد لتؤدي وظيفة استمرارية التواصل السردي مع المتلقي الذي يدل عليه ضمير المخاطب "أنتم" وهو نوع من الإحالة المقامية، التي يقول هاليداي وحسن بشأنها أنها " تساهم في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام.[26]

ثم يلي هذا التركيب ثلاث جمل فعلية قصيرة جاءت على التوالي" **لا يقربه الحمار ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل...فكنا نمزج منه للحمار، فاعتل منه وانتقض علينا من أجله**"

نلاحظ هنا، أن السارد لجأ إلى استعمال الجمل الفعلية القصيرة معتمدا الأسلوب الإحالي ، ذلك لأنه استعاض عن ذكر المفردات بضمير الغائب المتصل بتلك الأفعال كقوله:"لا يقربه، ولا تسيغه،..." وهو يعود على الماء المالح . والأسلوب الإحالي هنا إنما ينتمي إلى الإحالة النصية القبلية، لأن الضمير يعود على اسم ورد قبل تلك المتتاليات من الجمل. وهو سبب ربطها مع التركيب الإسنادي الأول، ليبرز المعنى للمتلقي . كما أغنى السارد هذا النوع من الإحالة عن استخدام أسلوب التكرار غير المستساغ في مثل هذا المقام . ويبدو أن السارد في هذا المحكي قد استساغ أسلوب الإيجاز في التعبير باعتماده الأسلوب الإحالي، من باب تطبيق مبدأ الاقتصاد في كل شيء، سواء أكان مجردا مثلما هو في الخطاب، أو واقعيا مثلما هو في النفقة.

كما لجأ السارد إلى استخدام أسلوب الحذف إلى جانب الإحالة، وهو من أدوات الاتساق الذي يحدده (هاليدي، وحسن) في كتابهما أنه "علاقة داخل النص"، أي أنه "علاقة قبلية. ويبحث عنه في العلاقة بين الجمل وليس داخل الجملة الواحدة" [27] ويظهر الحذف في هذا التركيب الذي جاء في المقطع الأول من النص: "**والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مؤونة**". يقصد السارد بالعذب، أي الماء الصالح للشرب والاستعمال العادي والعبادي، وهو بهذا يكون قد عمل على حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، وهذا اللون من الحذف إنما يتم عند ذكر المفردة المحذوفة في جملة سابقة والموصوف المحذوف هنا يتمثل في الماء، وهو أسلوب شائع في العربية يستخدم في الكلام للإيجاز.

ويأتي المقطع الثاني من النص على هذا الشكل من قول السارد" **ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى ذلك المتوضإ، فجعلت في ناحية منه حفرة، وصهرجتها وملستها، حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصويت إليها المسيل.** ..."**[28]** لقد غلبت على هذا المقطع التراكيب الاسنادية الفعلية لتدل على الحركة والحيوية والفعالية، ولعل استخدام السارد للأفعال الصحيحة ذات الإيقاع السريع إلا ليعبر من خلالها عن حالة النشاط التي انبعثت فيه نتيجة لتلك الفكرة الإلهية التي أخرجته من مأزقه وجعلته يغنم بالماء العذب دون أن يغرم لأجله.

ولقد استند السارد في نسج خطابه السردي في هذا المقطع . بشكل بارز. على أسلوب الإحالة الذي يسر له عملية ربط تلك التراكيب بعضها ببعض، محققا بذلك مظهرا آخر من مظاهر انسجام الخطاب الذي يسميه (فان ديك) بالترتيب العادي للوقائع في الخطاب فلو نتأمل الأفعال المحال إليها في تلك المتتالية من التراكيب القصيرة، فإننا نجدها مرتبة حسب وقوعها في المحكي، حتى يحقق السارد غرضه السردي الذي يتمثل في إقناع المتلقي بمدى فعالية أسلوب الاقتصاد في حياة المرء .

من هنا، يمكن أن نستنتج أن هذا النص منتوج خطابي مترابط متسق ومنسجم، وليس تتابعا عشوائيا لألفاظ وجمل وأفعال كلامية.

II – السارد والمخاطب

إن الخطاب السردي كباقي أنواع الخطابات الأخرى، يحتاج إلى متكلم ومستمع، فإنه بدونهما يفقد معناه. وفي سياق بحثنا حول كيفية تحقق مفهومي الاتساق والانسجام في النص السردي. فإننا سنبحث في هذا العنصر عن مدى فعالية قطبي التخاطب السردي في تنمية حبكة النص وانسجامه الدلالي في مستوييه الكلي والجزئي.

يطالعنا الناص في مطلع النص السردي " قصص يرويها المسجديون" بالتركيب التالي "قال أصحابنا من المسجديين ". يؤدي هذا التركيب وظيفة إخبارية قوامها التمهيد والربط ليهيئ الناص من خلالها ذهن القارئ، لتلقي ما سيأتي من خطاب. لقد جاء الفعل "قال" ليفتح أمام الناص المجال واسعا لامتداد نسيج الخطاب السردي عبر فضاء النص. ويحيلنا الفعل ذاته على أن هناك هيئة تلفظية تقوم على إسناد الفعل الحكائي إلى هيئة تلفظية أخرى حددها السياق التمهيدي في النص في عبارة"أصحابنا من المسجديين". وتتمثل الهيئة التلفضية صاحبة الفعل "قال" في شخصية الجاحظ الذي يأخذ على عاتقه مهمة

الإعلان عن ظهور النص السردي، موهما المتلقي أن حدود وظيفته السردية قد انتهت عند هذا الحد.

إن هذا التحليل يقودنا إلى النظر في نوع العلاقة التي تربط ما بين المرسل والمتلقي الواقعيين، أي المؤلف الحقيقي منتج الأثر الأدبي والقارئ الحقيقي الذي يتجه إليه ذلك الأثر. والجاحظ. كما نعلم. حرص في كتابه البخلاء على نقل المادة الحكائية في أخبار ونوادر البخلاء من الشفهية إلى التدوين وهو بذلك يحرص شدّة الحرص على مخاطبة القارئ الغائب لا المستمع الحاضر. وإن كان لم يسند عملية السرد والإخبار إليه شخصيا، وإنما لجأ كما هو العرف في السّردية العربية إلى اقتناء أداة فنية تؤدي وظيفة إرسال الخطاب السردي ويحتفظ هو لنفسه بوظيفة تشكيل الإطار الخارجي للمحكي مجسدا بذلك وظيفة السارد المفارق لمرويه .

وبشيء من التأمل في المقطع السردي الذي جاء على لسان أصحاب الجاحظ من المسجديين في قولهم: "**اجتمع ناس في المسجد، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، التماسا للفائدة، واستمتاعا بذكره.**" فإننا نستنتج من سياقه السردي أنه مقدمة تمهيدية للمحكي؛ بحيث يقدم السارد من خلالها عرضا تعريفيا عن طائفة معينة من الناس تجتمع على رأي وموقف واحد حول فائدة الاقتصاد في النفقة والتثمير للمال. إن دلالة هذا المقطع توحي إلى أن وظيفة الجاحظ السردية لم تتوقف عند حد الإعلان عن السرد كما أوهمنا، وذلك بإسناده الفعل السردي إلى بعض أصحابه من المسجديين، وإنما تؤكد لنا دلالة تلك الوحدات السردية الصغرى أن صاحب الخطاب السردي هو نفسه الجاحظ. ولقد شجعنا على حمل هذه النتيجة أمران : أما الأول، فإن الجاحظ حتى يضمن أمر تواصله مع القارئ فإنه أزال عن ذهنه الإبهام والتشوش الذي قد يحدث بسبب عبارة "المسجديون"، خاصة إذا علمنا أنها تطلق في عصر الجاحظ على كل فئة تتفق على مذهب أدبي أو علمي أو عقدي أو معيشي إلا وتجعل من فضاء المسجد منتدى لها، لتتبادل الرأي والطروحات في مسألة من المسائل كما الحال مع جماعة البخلاء في هذا النص .

أما الأمر الثاني، فيتمثل في أسلوب الاستهزاء والتعريض بهاته الفئة البخيلة الذي وظفه الجاحظ في دلالة تلك التراكيب النحوية الموجزة، فوصف من خلالها شدة حب هذه

الفئة للتثمير للمال ومنعه من الإسراف. كما صور في أسلوب تهكمي أمر تلاحم هذه الفئة وارتباطها بعضها ببعض، لما شبه مجازا مذهبهم في البخل بالنسب الذي يجمع الناس على التّحاب. فنحن لا نعتقد أن يأتي مثل هذا الكلام على لسان المسجديين أنفسهم وهم ممن ينتحل البخل مذهبا في حياتهم .

تمكن الجاحظ عبر هذا المقطع السردي التمهيدي، أن يحدد من خلاله شكل النص الخارجي، بحيث أفضى هذا الشكل إلى خلق إطار سردي احتوى كل النصوص السردية التي جاءت عن طريق التوالد والتعاقب. فكان ذلك التنظيم بمثابة الشرط البنائي الذي أوصد مكامن حبكة النص الكلي في ترابطه بعضه ببعض، وانسجامه باستمرار دلالته في عالم النص.

وهناك مستوى آخر يمكن للباحث أن يرصد من خلاله العلاقة بين السارد والمخاطب وهو مستوى يحيل على سارد ينتح الحكي، يقابله مسرود له حاضر يتلقى ذلك المحكي، ويتحقق هذا المستوى في النصوص السردية التي تشكل بنويا أجزاء النص الداخلية. فبالنظر إلى نوع العلاقة التخاطبية ما بين السارد والمتلقي في هذا المقام، نلفيها علاقة مباشرة لا تستند إلى وسيط، والسبب في ذلك يرجع إلى أن قطبي التخاطب السردي يجمعهما مقام تواصلي واحد يتمثل في المجلس الذي يحقق "تلك الاستراتيجية الحكائية المشتركة بين الراوي والمروي له...فشروط المجلس تساهم في تحقيق التفاعل بين الراوي ومتلقيه" [29]

إن هذا الكلام يحققه واقع النصوص السردية المؤطرة، فنجد السارد في النص الأول الذي بعنوان "الحمار والماء العذب" يصطنع تراكيب نحوية تحقق الوظيفة التواصلية بينه وبين المتلقي عن طريق أسلوب التخاطب باستخدام ضمير "أنتم" المتصل في هذه العبارة "كما قد علمتم". ثم يسترسل في عرض المحكي معتمدا أسلوب السرد الذاتي الذي جاء على لسان أحد الشيوخ، محققا بذلك نمط السارد الذي ينهض بمهمة الرواية إلى جانب مشاركته في أحداث المروي. إن هذه الدلالة الأولى أفادتها صيغ المتكلم بصفتها علامات إشارية أي ملازمة وجوبا لمرجعها. كما نستنتج من ذلك أن الشيخ يسرد عن نفسه وقائع حدثت له في زمن ماضي يعمل على استعادته عن طريق فعل السرد من ذلك قوله "**ماء بئرنا**"، "**فكنا نمزج**"، "**ثم انفتح لي فيه باب**"،إلى غير ذلك. وعندما ينتهي السارد من الفعل السردي فإنه يتلقى خطابا موجزا حدده السياق السردي في هذه العبارة " **قال القوم: هذا بتوفيق الله ومنه**"، لقد صدرت هذه العبارة عن المتلقي المستمع ليعبر من خلالها عن اقتناعه بما جاء في

المحكي وهو بذلك قد استخلص العبرة التي تزيد من درجة اعتقاده بمذهب الشح والبخل في المعيشة.

على هذا النحو من أسلوب التخاطب بين السارد والمتلقي، ينبني الخطاب السردي في باقي النصوص السردية ، فعملية التخاطب إذا هي مزدوجة يجسدها كل من المتكلم والمخاطب،وتدل عليها تلك الدلائل اللغوية التي تحيل إلى التواصل القائم ما بين السارد والمسرود له وهو تواصل مباشر غير منقطع.

خلاصة القول :

نخلص إلى أن هذا النص الذي حاولنا دراسته باستثمار مقولتي الاتساق والانسجام في مستوييه الكلي والجزئي، أنه منتوج سردي مترابط ومنسجم ، ألفت بين بنيته الكلية والجزئية تلك الأدوات التي أحكم الناص اصطناعها في سبك نسيج النص وحبك دلالته.

الهوامش:

1- سعيد يقطين، من النص إلى النص المترابط /عالم الفكر، العدد 2 ،المجلد 32 ، أكتوبر ،ديسمبر 2003، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص.74

2-المرجع نفسه،ص 76

3-راجع ،جميل عبد المجيد حسين، علم النص،أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، عالم الفكر(مرجع سابق)ص 145

4 - توفيق قريرة، التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص الأدبي، عالم الفكر (م،س) ص 183

5. بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة، محمد برادة، وحسان برقية، عين للدراسات والبحوث، مصر،2001 ص 105

6 . سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط ، عالم الفكر (م،س)ص 16

7 . سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1 1989 ص 15

8 . راجع أحمد عفيفي، نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2001 ص 32-33

9 . سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي ص 17

10 . رولان بارث، مدخل للتحليل البنيوي للسرد، مجلة آفاق عدد 8-9/ 1988 ص 8

11 . توفيق قريرة، التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص في النص الأدبي / عالم الفكر (م س) ص 182

12-مجمد خطابي، لسانيات النص،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ص5

13-راجع ر .بارت ، مدخل للتحليل البنيوي للسرد، مجلة أفاق(م،س)

14-ج،ب، براون، وج،يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي، ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، المملكة العربية السعودية، ص 228 .

15-راجع محمد خطابي ، لسانيات الخطاب.

16-المرجع نفسه، ص5

17-المرجع نفسه ص 32

18 . محمد الصالح البوعمراني، مفهوم النص وعلاقته بمفهوم الانسجام، الحياة الثقافية 28 عدد 144- أفريل، 2003 ، ص 129

19 . جورج مولينيه، الأسلوبية، ترجمة بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان، ط 1، 1999، ص .124

20 . عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1992 ، ص 10

21 . أحمد عفيفي، نحو النص ، ص 98

22 . سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 43

23 . كتاب البخلاء، منشورات موسوعة الأعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان،ص .41

24 . محمد خطابي، لسانيات النص ، ص 12

25 . البخلاء، ص 41

26 . محمد خطابي، لسانيات النص، ص17

27 . المرجع نفسه، ص 21

28- البخلاء، ص 42

29 . سعيد يقطين، قال الراوي، المركز الثقافي العربي بيروت/ الدر البيضاء، ط 1،1997، ص300.